انيس الجليس في أخبار تنيس

تأليف : محمد بن أحمد بن بسام المحتسب التنيسي

نشر وتحقيق وتقديم

الدكتور جمال الدين الشيال

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الناشر

مدينة تنيس مدينة مصرية إسلامية مندثرة كانت تقع على جزيرة تحمل اسمها في الشمال الشرقي من بحيرة تنيس (المنزلة حالياً) بين مدينتي الفرما في شرقيها ودمياط في غربيها

وقد لعبت مدينة تنيس دوراً حضارياً كبيراً في تاريخ مصر الاسلامية فقد كانت ثغراً بحرياً هاماً ومقر الأسطول وبها دار لصناعة السفن ، كما كانت مركزاً من أهم مراكز صناعة النسيج الرفيع وبها كانت تصنع كسوة الكعبة قروناً طويلة ، ولهذا كان معظم أهلها يشتغلون بالنسج والحياكة كما كانوا يمتهنون صيد الأسماك والطيور

وكانت تنيس مدينة حصينة قوية تحيط بها الأسوار ذات القلاع والأبراج فقد كانت محطاً لأنظار المغيرين من البيزنطيين والصليبيين ، فكثرت غاراتهم عليها ، وصمدت لهذه الغارات وقاومتها في بسالة إلى أن أمر الملك الكامل محمد الأيوبي بتحطيم أسوارها وقلاعها في أوائل القرن السابع الهجري، فهجرها أهلوها وهدمت مصانعها ودور طرازها وأصبحت

قاعاً بلقعاً كأن لم تغنَ بالأمس

وقد كتب واحد من علماء المدينة ومحتسبيها وهو محمد بن أحمد بن بسام تاريخاً لها أسماه « أنيس الجليس في أخبار تنيس » ، وبقيت من هذا التاريخ قطعة صغيرة بوجدمها نسخة وحيدة في دار الكتب المصرية بالقاهرة وهذه القطعة هي التي نقدمها هنا بعد أن أضفنا اليها دراسة تحليلية مفصلة للكتاب وللمؤلف ، وسيرى القاريء أن هذا التاريخ على صغر حجمه يلقى أضواء جديدة على كثير من النواحي الصناعية والعمرانية لمدينة تنيس بصفة خاصة ولمصر الاسلامية بصفة عامة

وحبذا لو عنى المشتغلون بالتاريخ وبنشر التراث العربي وتحقيقه بما وصلنا من تواريخ المدن العربية الاسلامية الأخرى ، وفقنا الله جميعاً لخدمة وطننا العربي وتاريخه

١٠ نيسان (ابريل) ١٩٦٦ جمال الدين الشيال


تنيس والمنطقة المحيطة بها
فى القرن السابع الهجرى
الثالث عشر الميلادى
(البحر الأبيض المتوسط)
بحر الروم
تنيس
الطينة
الفرما
صان
الفرع التانيتى (فرع تانيس)
الفرع البلوزى (فرع الفرما)

القسم الاول

دراسة تفصيلية عن الكتاب والمؤلف

عناية المسلمين بالتاريخ لمدنهم :

عنى المسلمون عناية كبيرة بالتأريخ لمدنهم الكبرى والصغرى ، ولهذا قلَّ أن نجد مدينة إسلامية لم يكتب لها تاريخ، وهذه التواريخ تختلف في حجمها كبراً وصغراً ، فبعضها يقع في مجلدات كثيرة ، مثل :

تاريخ دمشق لابن عساكر

وتاريخ بغداد للخطيب البغدادي

وتاريخ حلب لابن العديم

وبعضها يقع في مجلد واحد ، مثل :

تاريخ الفيوم للنابلسي

وتاريخ بيروت لصالح بن يحيي ... الخ

وهذه التواريخ جميعاً تعتبر من المصادر الهامة لدراسة الآثار الاسلامية والحضارة والعمران بوجه عام ، فهي سجلٌ حافل بأوصاف هذه المدن في عصورها المختلفة ، وبأوصاف خططها وحاراتها وأسواقها وأسوارها ، وما كان بها من منشآت هامة : كالقلاع والحصون والأبراج والأسوار والأبواب، والدور والقصور ، وما كان بها من معابد دينية : كالمساجد والكنائس والأديرة ، وما كان بها من معاهد علمية تعليمية : كدور العلم والحكمة ، والمدارس ، والبيمارستنات ، والخوانق ، والربط ، والزوايا ، وخزانات الكتب .. الخ

وبعض هـذه المنشآت في هذه المدن الإسلامية القديمة قد تهدّم ، ولم تبقَ منـه إلا أطلال ورسوم ، وبعضها قد طُمر تحت الرمال والأتربة وعلماء الآثار في دراستهم لهذه الأطلال الباقية ، وفى بحثهم عن هذه المنشآت المطمورة المختفية يجدون العون والدليل دائماً فيما ورد في تواريخ المـدن من روايات أو أوصاف ، وفيما كانت تثبته أحياناً من النصوص التي كانت تُنقش على جدران هذه المنشآت لتحديد تاريخ البدء في بنائها أو الانتهاء منه ، ولتعيين اسم مؤسسها وبانيها

وحبذا لو تعاون المؤرخون والأثريون وعملوا على إعداد إحصاء شامل لكل الـكتب التي ألفت للتأريخ للمدن الإسـلامية ، مع بيان الموجود منها والمفقود ، والمطبـوع منها والمخطوط ، ليسترشد طلاب البحث بهذا الإحصاء ، وليعمل المؤرخون والمشتغلون بالنشر والتحقيق على طبع ما لم يطبع من هذه التواريخ

تواريخ المدن المصرية في العصر الإسلامي :

وأنا لا أستطيع أن أقدم هنا إحصاءً كهذا ، ولـكنني اكتفي بالإشارة إلى ما وفقت للعثور عليـه من كتب ألفت للتأريخ للمدن المصرية فى العصر الاسـلامي ، وهذه الـكتب نوعان :

كتب الخطط :

نوع عام عنى بالتأريخ للمدن المصرية كما عنى بوصفها الطبوغرافي ، وبتطـورها ، وبما كان بها من آثار ومنشآت ، وهو المعروف بكتب « الخطط » وأول من بدأ بالـكتابة في هذا الفن التاريخي هو عبد الرحمن بن عبد الحـكم — أقدم مؤرخي مصر الاسلامية — في كتابه « فتوح مصر والمغرب والأندلس » ، ثم تبعه أبو عمر محمد بن يوسف الـكندي[1] ،

(١) قال المقريزي في مقدمة كتاب « المواعظ والاعتبار » : « أول من رتب خطط مصر وآثارها وذكر اسبابها في ديوان جمه أبو عمر محمد بن يوسف الـكندي » ، والصحيح أن ابن عبد الحـكم سبقه في هذا الميدان ، وعن حيـاة الـكندي ومؤلفـاته انظر المقدمة التي كتبها « جست Guest » لـكتاب « الولاة والقضاة » و محمد عبد الله عنان : مصر الاسلامية وتاريخ الخطط المصرية ، ص ٥ وما بعدها .

حين وضع كتابه في خطط الفسطاط — العاصمة الأولى لمصر الاسلامية — ، ثم تبعه مؤرخون آخرون :

فكتب الحسن بن زولاق (توفى ٣٨٧ هـ = ٩٩٧) كتابه « الخطط » [1]

وفي القرن الخامس الهجري كتب أبو عبد الله محمد بن سلامة بن جعفر القضاعي (توفى ٤٥٤ هـ) كتابه « المختار في ذكر الخطط والآثار » .

وفي القرن السادس كتب الشريف النسابة محمد بن أسعد الجواني (توفى سنة ٥٨٨ هـ = ١١٩٢ م) كتابه « النقط بعجم ما أشكل من الخطط »

ومن القرن السابع كتب محيي الدين عبد الله بن عبد الظاهر (توفى سنة ٦٩٢ هـ = ١٢٩٢ م) كتابه « الروضة البهية الزاهرة في خطط المعزية القاهرة »

وفي القرن الثامن كتب تاج الدين محمد بن عبد الوهاب بن المتوج (توفى سنة ٧٣٠ هـ = ١٣٣٠ م) كتابه « إيقاظ المتغفل واتعاظ المتأمل من الخطط»

وكتب ابن الجيعان (توفى في أواخر القرن الثامن الهجري) كتابه « التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية »

وكتب صارم الدين ابراهيم بن محمد المعروف بابن دقماق (توفى سنة ٨٠٩ هـ = ١٤٠٦م) كتابه « الانتصار لواسطة عقد الأمصار »

وفي القرن التاسع الهجرى (١٥ م) وصل فن الخطط الى أوجه في الموسوعة التي كتبها تقي الدين أحمد بن علي المقريزي (توفى ٨٤٥ هـ) وأرخ فيها لمدن مصر جميعاً وأسماها « المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار » ، وقد أفاد فيها من مجهودات سابقيه جميعاً وأضاف إليها أوصاف هذه البلدان والآثار وما أصابها من تغيير أو تطور إلى عصره

ونستطيع أن نقول إن هذا الفن من فنون التأليف التاريخي الأثري فن مصري

(١) انفرد بذكر هذا الكتاب ابن خلكان ، فقد قال في ترجمته لابن زولاق : « وله كتاب في خطط مصر استقصى فيه »

أصيل ، فقد ظهر في مصر دون غيرها من البلاد الاسلامية ، وفيها نما وازدهر ، واتصلت حلقات التأليف فيه قرناً بعد قرن ، فلا يكاد قرن يمر دون أن ينبغ من المصريين مؤرخ أو أكثر من كتاب هذا الفن ، ودون أن يضيف هذا الكاتب الى المكتبة التاريخية المصرية كتاباً قيماً في خطط مصر وآثارها ، وكل واحد من هؤلاء كان في العادة يفيد مما كتبه سابقوه ويضيف اليه ليقدم للقارئ الصورة التي كانت تبدو عليها مدن مصر وآثارها في عصره هو

ولم ينقطع شغف المصريين بهذا الفن التاريخي وإبداعهم فيه حتى يومنا هذا ، ففي القرن الثالث عشر الهجري (١٩ م) كتب علي مبارك كتابه « الخطط التوفيقية الجديدة » واتخذ الخطط المقريزية أساساً بنى عليه وأكمل وأضاف

وفي القرن الرابع عشر (٢٠ م) كتب محمد رمزي كتابه « القاموس الجغرافي للبلاد المصرية من عهد قدماء المصريين الى سنة ١٩٤٥ [١] »

وكتب هذا النوع لم تصلنا جميعها ، بل كثير منها مفقود مثل كتب الكندي وابن زولاق والقضاعي والشريف الجواني وابن عبد الظاهر وابن المتوج ، ولا نكاد نعرف عنها شيئاً إلا تلك الشذرات المتناثرة التي قبسها عنها المؤرخون المتأخرون

تواريخ المدن :

والنوع الثاني من الكتب التي أرخت للمدن المصرية نوع خاص ، أعني أنه يتضمن كتباً ألف كل كتاب منها للتأريخ لمدينة واحدة ، والملاحظ أن مؤلف كل كتاب من هذه الكتب كان من أبناء المدينة نفسها ، دفعه حبه لمدينته ـ هذا الوطن الصغير ـ الى التأريخ لها ، ومن هنا كان لهذا النوع من الكتب أهمية خاصة لأن الحديث فيه عن تأريخ المدينة وأخبارها ومنشآتها وتطورها حديث مفصل مستوفى ، ولأن المؤرخ يكتب عن معرفة وخبرة ومشاهدة

---

(١) مطبوعات دار الكتب المصرية في ٥ مجلدات ، الاول عن البلاد المندرسة (١٩٥٣ ـ ١٩٥٤)، والأربعة الأخرى عن البلاد الحالية (١٩٥٤ ـ ١٩٦٣)

والمدن المصرية التي أرخ لها قليلة العدد ، ومن الغريب أنها جميعاً من الثغور ولم أجد مدينة من المدن المصرية الداخلية كتب لها تاريخ - ما عدا مدينتي الفيوم وأسيوط - ، والمراجع تشير الى كتب وضعت للتأريخ للثغور البحرية الشمالية الثلاث : الاسكندرية ودمياط وتنيس ، كما تشير الى كتاب وضع للتأريخ للثغر البري الجنوبي أسوان ، وفيما يلي بيانها :

كتب تاريخ الاسكندرية :

كتاب « تاريخ الاسكندرية » ، تأليف وجيه الدين أبي المظفر منصور بن سليم بن منصور بن فتوح الهمذاني الاسكندري ، والمؤرخ سكندري من رجال القرن السابع الهجري (١٣ م) - فقد ولد في ثامن صفر سنة ٦٠٧ هـ ، وأخذ عن الكثيرين ورحل إلى الشام والعراق ، وكان من علماء الاسكندرية وفقهائها الممتازين ، وولي الحسبة بها مدة ، واعتنى بالحديث والفقه والرجال والتاريخ، وجمع لنفسه معجماً ، وكتب تاريخاً كبيراً لمدينة الاسكندرية ، ذكر السبكي والذهبي أنه كان في مجلدتين ، وذكر السخاوي أنه كان في أربع مجلدات ، وتوفي في الحادي والعشرين من شوال سنة ٦٧٣ هـ [1]

وهذا التاريخ مفقود [2] للأسف الشديد ، ولو اننا عثرنا يوماً على نسخة منه فاننا

---

(١) لاستيفاء ترجمة منصور بن سليم راجع : (الذهبي : تاريخ الاسلام وطبقات المشاهير والاعلام، مخطوطة دار الكتب المصرية ، وفيات سنة ٦٧٣ ، ص ٣٩٦) ، (الذهبي ، تذكرة الحفاظ ج ٢٤ ص ٢٤٩) ، (ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٥ ص ٣٤١) ، (السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ، ج ٥ ، ص ١٥٧) ، (ابن تغري بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٢٤٧) ، (المقريزي : السلوك ج ١ ، ص ٦١٩) ، (السخاوي : الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ، ص ١٢٢) ، (حاجي خليفة : كشف الظنون) ، (الشيال : الاسكندرية ، طبوغرافية المدينة وتطورها ، ص ٦ ٢ - ٢٠٧)

(٢) لبثت زماناً أبحث عن هذا التاريخ لأهميته ، وكنت وجدت منذ سنوات عدة في فهرس المخطوطات العربية بمكتبة أياصوفيا باستانبول ما يفيد أن بالمكتبة نسخة مخطوطة من هذا التاريخ تقع في مجلدين تحت رقمين ٣٠٠٣، ٣٠٠٤ ، وأرسلت في الحال للصديق المستشرق الالماني رتر Ritter - وكان مقيماً وقتذاك في استانبول - أستوضحه حقيقة هذه المخطوطة توطئة لتصويرها ، ولكنه - للأسف الشديد - أرسل يخبرني أن الكتاب غير موجود ، وأن الكتاب الموجود مكانه والذي يحمل رقمه كتاب آخر تافه =

سنعثر في الحقيقة على وثيقة هامة جداً توضح لنا تاريخ الاسكندرية ومعالمها في القرون السبعة الهجرية الأولى ، فالمؤلف كما قلنا واحد من أبناء الاسكندرية وعلمائها ، وقد تولى التدريس والحسبة بها وقتاً ما

وهناك كتاب آخر ذو فائدة كبيرة للباحثين في تاريخ مدينة الاسكندرية في العصر الاسلامي غير أنه أقل أهمية من سابقه ، لأنه لم يكتب للتأريخ للاسكندرية ، وانما للتأريخ لحادثة معينة خاصة ، وهي غزوة القبارصة الصليبية للمدينة في أواخر القرن الثامن الهجري (٧٦٧ هـ = ١٣٦٥ م) ، وعنوان الكتاب :

« الإلمام بالإعلام بما جرت بـه الأحكام المقضية في واقعة الاسكندرية في سنة سبع وستين وسبعمائة ، وعودها الى حالتها المرضية » [1]

= وعنوانه « قصة الاسكندر الروي وسياحاته ودخوله في الظلمة باحثاً عن ماء الحياة » .

انظر أيضاً : (فهرست المخطوطات العربية بمكتبة أياصوفيا ، استانبول ، ١٣٠٤ هـ)

(Brockelmann : Geschichte der Arabichen Litteratur. supp Vol. I. P. 573-574)

(١) كان المعروف الى وقت قريب أنه لا يوجد من هذا الكتاب إلا نسختان: نسخة من الجزء الاول منه في مكتبة برلين رقم ٩٨١٥ (وفي دار الكتب المصرية صور شمسية منها) ، ونسخة من الجزء الثاني من دار الكتب المصرية رقم ٣٩٤٢ ، غير أني عثرت أخيراً على ما يفيد وجود نسختين أخريين للكتاب احداهما في خزانة « بانكي بور » بالهند ، رقم ٢٣٣٥ ، وهي نسخة قيمة هامة ، لأنها كتبت في القرن الثامن الهجري ، فهي أقدم النسخ المعروفة ، وتشتمل على الجزء الاول من الكتاب فقط والثانية في المتحف البريطاني رقم ٦ ٦ ، وانما تحت عنوان مخالف . وهو « مرآة العجائب في وقاية الاسكندرية » أنظر :

(السيد هاشم الندوي : تذكرة النوادر من المخطوطات العربية ، حيدر أباد الدكن ، ١٣٥٠ هـ) و (فهرس دار الكتب المصرية ، ج ٥ ، ص ٣٨ ، ج ٨ ، ص ٢٤) .

Combe : Le Texte de Nuwairi sur L' Attaque d' Alexandrie, Par Piere I de Lusignan, dans : Bulletin of The Faculty of Arts, Alexandria (Farouk I) University ,vol. III, 1946

واتيين كومب : بعض منتخبات من كتاب الالمام للنويري الاسكندري ، نفس العدد من المجلة المذكورة) و (الشيال : الاسكندرية ، طبوغرافية المدينة وتطورها ، ص ٧ ٢ ـ ٢٠٨) .

والكتاب لحسن الحظ موجود ولكنه لايزال مخطوطاً ، ومؤلفه هو محمد بن القاسم النويري [1] الاسكندري ، إلا أن الطريقة الاستطرادية التي التزم بها المؤلف قد أمدتنا في هذا الكتاب بمعلومات نادرة وهامة جداً عن تاريخ الاسكندرية ومعالمها وطبوغرافيتها وأحوالها العمرانية والاقتصادية في العصر الاسلامي عامة ، وفي القرن الثامن الهجري (١٤ م) خاصة

وقد كتبت عن « فضائل الاسكندرية » رسائل كثيرة تشير المراجع الى ثلاث منها ، اثنتان موجودتان ، والثالثة مفقودة

أما الاثنتان فهما :

أ — « فضائل الاسكندرية » لأبي علي الحسن بن عمر بن الحسن الصباغ [2]، وتوجد منها نسخة خطية في المكتبة الظاهرية بدمشق برقم ١٦٣

ب — « رسالة في فضل ثغر الاسكندرية » لجلال الدين السيوطي [3] ، وتوجد منها نسخة خطية في مكتبة الجامع الأزهر بالقاهرة تحت رقم ١٣٧٤

أما الرسالة المفقودة فعنوانها « فضائل الاسكندرية » كذلك ، ومؤلفها هو خلف بن علي بن محمد بن أحمد بن داود بن عيسى المغربي التُروجي السكندري [4] ، المتوفى سنة ٨٤٤ هـ

---

(١) انظر ترجمته في (ابن حجر : الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ، ج ٤ ص ١٤٢) ، وقد قال السخاوي في الاعلان بالتوبيخ ، ص ١٢٢ عند حديثه عن هذا الكتاب : « ولمحمد بن قاسم بن محمد النويري السكندرى صفة الكائنة العظمى التي وقعت للفرنج في أول سنة ٦٧ حين ملكوها ونهبوا أموالها وأسروا نساءها ورجالها ، في ثلاث مجلدات ، ولكنه استطرد فيها من شيء الى شيء فانه ابتدأ بصفة فتحها واستمر بحيث كانت الواقعة في جانب ما ذكر كالشامة »

(٢) و (٣) راجع:(الشيال : الاسكندرية ، طبوغرافية المدينة وتطورها ، ص٢٠٨) و(السخاوي: الاعلان بالتوبيخ ، ص ١٢٢) و (حسن عبد الوهاب : الاسكندرية في العصر الاسلامي ، مجلة الكتاب عدد يناير ١٩٤٧) و (Rosenthal : History of Muslim Historiography, P 383) والترجمة العربية للدكتور صالح أحمد العلي بعنوان « علم التاريخ عند المسلمين »

(٤) انظر ترجمته في (السخاوي : الضوء اللامع ج ٣ ص ١٨٤) .

كتب تاريخ دمياط :

— كتاب تاريخ « دمياط »

ومؤلفه مجهول، ولسنا نعرف عنه شيئاً ، ولم يشر اليه أحد من المؤرخين غير المقريزى، وقد نقل عنه بعض الفقرات أثناء كلامه عن مدينتي « تنيس » و « الورّادة » في كتابه « الخطط » ، وقدم لهذه الفقرات بقوله : « وقال جامع تاريخ دمياط »

وقد عثرت أخيراً على قطعة صغيرة أرجح أن تكون جزءاً من هذا التاريخ ، وهى قسم من مخطوطة تضم رسائل أخرى ، وهذه القطعة ـ وتقع في عشر ورقات ـ تتكون من ثلاثة أبواب :

— الباب الأول « فى فتوح دمياط »

— الباب الثاني « في فضائل دمياط »

— والباب الثالث « في شطا ورملة »

وقد قارنت بين هذه القطعة المخطوطة و بين الفصول التي كتبها المقريزي في خططه عن « دمياط » و « تنيس » و « الورادة » و « الفرما » ، فرجح عندي أن هذه القطعة هى جزء من « تاريخ دمياط » الذي عرفه المقريزي ونقل عنه ، والمقريزي ينقل عن هذا التاريخ نقلاً حرفياً في بعض الاحيان ، ونقلاً موجزاً ملخصاً فى احيان أخرى ، وسأفصل الحديث عن هذه القطعة فيما يلي من صفحات هذه المقدمة

— هذا وقد ذكر السيوطي في ترجمته لنفسه التى ضمنها كتابه « حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة » [1] قائمة بمؤلفاته ، ذكر من بينها : « الرحلة الدمياطية » ، وهى للأسف من كتبه المفقودة

— وفى القرن التاسع الهجري (١٥ م) ألف الأديب المؤرخ محمد بن أبي بكر بن عمر القادري الجوهري الدمياطي مقامة عنوانها : « المقامة الدمياطية في وصف الثغر ومحاسنه السنية »

---

(١) ج ١ ، ص ١٤٥

وقد ولد هذا الأديب بقرية دانجية قرب دمياط في سنة ٨٢٠ هـ ، وتلقى العلم بها وببعض مدن الصعيد ، وحجّ في سنة ٨٣٤ هـ ، ثم استقرّ في دمياط ، وناب في القضاء بها ، وقال الشعر ، « وأتى بالقصائد الجيدة ، وخمّس البردة ، ومدح كثيراً من الرؤساء ... وتكسب في سوق الجوهريين وقتاً » (١)

وقد مدح القادري الملك المنصور عثمان بن السلطان الظاهر جقمق — وقت أن كان منفياً في مدينة دمياط — بقصيدة جميلة سماها « الروض الممطور في مدح الملك المنصور » ، وقدم لها بالمقامة سالفة الذكر التي أنشأها في وصف دمياط والقصيدة والمقامة يضمها مجلد واحد ، ولا تزالان مخطوطتين في مكتبة معهد دمياط الديني ، ولهما — إلى جانب قيمتهما الأدبية — أهمية خاصة ، فهما ترسمان صورة شائقة لمدينة دمياط في أواخر القرن التاسع الهجري ، وهذه الصورة في جملتها لا تختلف كثيراً عن الصورة التي رسمها المقريزي لمدينة دمياط في أوائل القرن نفسه (٢)

كتب تاريخ تنيس :

— وألف في تاريخ مدينة تنيس كتابان :

الأول في فضائلها من تأليف أبي القاسم عبد المحسن بن عثمان بن غنائم الخطيب (٣) ،

---

(١) انظر ترجمة القادري الدمياطي في (السخاوي : الضوء اللامع ج ٧ ص ١٨٨) و (الشيال : مجمل تاريخ دمياط ص ٥٠ — ٥٣)

(٢) زار المؤرخ المصري الكبير تقي الدين أحمد بن علي المقريزي مدينة دمياط في النصف الأول من القرن التاسع الهجري (١٥ م) ، وقد أرخ لها ووصف الكثير من معالمها في كتابه « المواعظ والاعتبار » ، وقال : « انها أحسن بلاد الله منظراً » ثم قال أيضاً : « أخبرني الأمير الوزير المشير الاستادار يلبغا السالمي — رحمه الله — أنه لم ير في البلاد التي سلكها من سمرقند الى مصر أحسن من دمياط هذه ، فظننت أنه يغلو في مدحها إلى أن شاهدتها فهي أحسن بلد وأنزه » ، ثم أثبت المقريزي في كتابه سالف الذكر قصيدة قالها في مدحها ، فيها وصف نادر لدمياط ومعالمها الهامة في ذلك العصر انظر : (المقريزي : الخطط ج ١ ص ٣٦٢) و (الشيال : مجمل تاريخ دمياط ص ٤٨ — ٤٩)

(٣) الف ابن غنائم كتابه هذا بعد سنة ٤١٣ هـ (١٠٢٢ — ١٠٢٣ م) انظر :
(Brockelman : G. A. L. Supp I. P 548) و (Rosenthal : Op bit .P. 589) وترجمته العربية للدكتور صالح أحمد العلي

وعنوان كتابه « العروس في فضائل تنيس » ، وقد انفرد بذكره السخاوي في كتابه « الاعلان بالتوبيخ لمن ذمّ التاريخ » ، وكتاب « العروس » من تراثنا المفقود

والكتاب الثاني عنوانه : « أنيس الجليس في تاريخ مدينة تنيس » لمؤلفه الحافظ شمس الدين محمد بن شهاب الدين أحمد المعروف بابن بسام المحتسب التنيسي ، وسنفصل الكلام عن المؤلف والكتاب فيما يلي من صفحات هذه المقدمة

كتاب تاريخ أسوان :

— « تاريخ أسوان » لابن الزبير الأسواني [1] ، ذكره حاجي خليفة في كتابه « كشف الظنون » ، وهو مفقود كذلك

كتب تاريخ الصعيد :

والى جانب هذه الثغور الشمالية البحرية وهذا الثغر الجنوبي البري ، حظى الصعيد في جملته بعناية نفر من المؤرخين المصريين ، وهو ما لم يحظ به الوجه البحري أو أسفل الأرض، ففي المراجع إشارات الى كتب ثلاثة ألفت للتأريخ للصعيد ، منها كتابان مفقودان لا نعرف من كل منهما غير عنوانه ، وهما : «كتاب العقيد في تاريخ الصعيد » لأبي سعيد عبدالرحمن

(١) عاش في مصر في أواخر العصر الفاطمي أخوان يحملان هذا الاسم « ابن الزبير الاسواني » : وهما : المهذب أبو محمد الحسن بن علي بن الزبير ، وأخوه الرشيد أحمد بن علي بن الزبير ، ولم يذكر حاجي خليفة أيهما مؤلف هذا التاريخ ، وكان الأخوان أديبين شاعرين عالمين ، غير أن المهذب أشعر ، والرشيد أعلم ، وتوفى المهذب سنة ٥٦١ هـ ، وتوفى الرشيد ٥٦٢ هـ انظر ترجمتهما في :

(ياقوت : معجم الأدباء ج ٤ ص٥١ و ج ٩ ص ٤٧) و (ابن خلكان : الوفيات) و (الأدفوي: الطالع السعيد ص ٤٧ و ١) و (ابن شاكر الكتبي : فوات الوفيات ج ١ ص ٢٤٣ ـ ٢٤٨) و (العماد الأصفهاني : الخريدة ، قسم شعراء مصر ج ١ ص ٢ ـ ٢٢٥) و (السلفي : معجم السفر، مخطوط) و (عمارة اليمني : النكت العصرية ص ٣٥) و (السيوطي : حسن المحاضرة ج ١ ص ٣٢٤) و (محمد كامل حسين : في أدب مصر الفاطمية ص ٢٠٣ ـ ٢١) و (ابن واصل : مفرج الكروب ، نشر الشيال : ج ١ ص ٢٥٥)

ابن أحمد بن يونس [1] ، وانفرد بذكر هذا الكتاب حاجي خليفة في « كشف الظنون »

— وكتاب « تاريخ الصعيد » لعلي بن عبد العزيز [2] الكاتب ، ذكره السخاوي في « الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ »

— والكتاب الثالث معروف ومطبوع وهو « الطالع السعيد في تراجم أعيان الصعيد » للادفوي ، وهو كتاب تراجم أولاً ، غير أنه يتضمن الكثير من المعلومات المفيدة القيمة عن تاريخ مدن الصعيد المختلفة وما كان بها من منشآت ومعاهد ومدارس ومساجد وآثار [3]

---

(١) أبو سعيد عبد الرحمن بن احمد بن يونس بن عبد الأعلى الصدفي المصري ، الحافظ المؤرخ ، من أوائل مؤرخي مصر الاسلامية ، ولد سنة ٢٨١ ، وتوفى سنة ٣٤٧ هـ ، وقال عنه مؤرخوه انه كان إماماً في علم التاريخ ، وله كلام في الجرح والتعديل يدل على تبصره بالرجال ، وعمل لمصر تاريخين : أحدهما — وهو الأكبر — يختص بأهل مصر ، والثاني يختص بذكر الغرباء الواردين على مصر ، ولم يذكر كتابه « العقيد في تاريخ الصعيد » غير حاجي خليفة في « كشف الظنون » وكتبه جميعاً مفقودة وان كان المؤرخون المتأخرون ينقلون عنه وقد رثاه عند موته الشاعر المصري أبو عيسى عبد الرحمن بن اسماعيل الخشاب النحوي بأبيات طريفة ، منها البيت المشهور الذي يقول فيه :

ما زلت تلهج بالتاريخ تكتبه حتى رأيناك في التاريخ مكتوبا

وقال ابن كثير : « وله ولد يقال له أبو الحسن علي ، كان منجماً له زيج مفيد يرجع اليه أصحاب هذا الفن ، كما يرجع أصحاب الحديث الى أقوال أبيه وما يؤرخه وينقله ويحكيه » ، وهم ابن خلكان فيه والصحيح ما ذكره ابن كثير ، وللابن ترجمات مختلفة في : (الثعالبي : يتيمة الدهر ج ١ ، ص ٣٤٥) و (القفطي : إخبار العلماء بأخبار الحكماء ص ١٥٥) و (ابن سعيد : المغرب في حلى المغرب ، الجزء الأول من القسم الخاص بمصر ، نشر الدكاترة زكي محمد حسن وسيدة الكاشف وشوقي ضيف ص ٢٧٣) وخلاصة هذه الترجمات أن الابن أبا الحسن علي كان من خواص المقربين للخليفة الحاكم ، وله كتاب الزيج الكبير الحاكمي ، أتمه قبل وفاته سنة ٣٩٩ هـ وكان مختصاً بعلم النجوم ، متصرفاً في سائر العلوم ، بارعاً في الشعر ، وله شعر كثير ، ومؤرخنا عبد الرحمن هو حفيد أبي موسى يونس بن عبد الأعلى الفقيه المصري ، صاحب الشافعي انظر ترجمة الجد في : (ابن خلكان : الوفيات ج ٦ ص ٢٤٧ـ٢٥١)

وراجع ترجمة عبد الرحمن في : (ابن خلكان : الوفيات ج ٢ ص ٣١٨ — ٣١٩) و (ابن شاكر الكتبي : فوات الوفيات ج ١ ص ٥٢٦ — ٥٢٧) و (الذهبي : تذكرة الحفاظ ج ٣ ص ١١٣) و (ابن كثير : البداية والنهاية ج ١١ ، ص ٢٣٣) و (ابن تغري بردى : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٣٢١) و (السيوطي : حسن المحاضرة ج ١ ص ١٤٧ ، ٢٣٨) و (الزركلي : الاعلام)

(٢) و(٣) السخاوي : الاعلان بالتوبيخ ص١٢٧ ، وانظر كذلك (Rosenthal. Op. bit. P. 394) والترجمة العربية للدكتور صالح أحمد العلي

وهناك مدينتان مصريتان من مدن الصعيد كتب لكل منها تاريخ مستقل ، وهما : مدينة أسيوط ، ومدينة الفيوم

أما المدينة الأولى فقد ألف فى تاريخها كتاب عنوانه « تاريخ أسيوط » ومؤلفه هو المؤرخ المعروف ابن المدينة جلال الدين السيوطي ، وقد ذكر هذا الكتاب ضمن مؤلفاته في ترجمته لحياته التي ضمنها كتابه « حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة [1] » ، ولكن هذا التاريخ للأسف الشديد من الكتب المفقودة التي لا نعرف عنها شيئاً

وإذا كان مؤرخو المدن المصرية السابقة جميعاً من أبناء هذه المدن ، فان مؤرخ مدينة الفيوم فخر الدين عثمان بن النابلسي لم يكن من أبنائها وإنما هو سوري الأصل ، نابلسي المولد ، قاهري الإقامة ، كان من كبار موظفي الدولة في عهد السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب ، اختاره السلطان في سنة ٦٤١ هـ للنظر في مصالح الفيوم وعمارتها ، فكتب كتابه هذا ليصف فيه الفيوم وقراها وخلجانها وسكانها وإدارتها وخراجها ومساجدها وكنائسها وأديرتها .. الخ وسماه :

« إظهار صنعة الحي القيوم
في ترتيب بلاد الفيوم »

وقد نشره المستشرق موريتز Moritz ، وطبع في بولاق في سنة ١٨٩٨ بعنوان : « تاريخ الفيوم وبلاده » [2]

مخطوطة « فوائد الموائد » :

وبعد ، فإن موضوع بحثنا في هذه المقدمة هو مخطوطة نادرة لم يشر اليها أحد من

(١) السيوطي : حسن المحاضرة ج ١ ص ١٤٤

(٢) انظر المقدمة الفرنسية التي كتبها موريتز لهذه الطبعة ، و (سركيس : معجم المطبوعات العربية والمعربة) ، هذا وقد ذكر السيوطي في ترجمته الذاتية (حسن المحاضرة ج ١ ص ١٤٥) قائمة بمؤلفاته ، من بينها « الرحلة الفيومية » ، وهي كذلك من كتبه المفقودة

قبل تضم قطعتين من كتابين من هذه الكتب السالف ذكرها ، وهما :

ـ كتاب تاريخ دمياط

ـ وكتاب تاريخ تنيس

وقد كان المظنون حتى اليوم أنهما مفقودان ، والمخطوطة وإن كانت لا تضم التاريخين كاملين ، وإنما تضم قطعة من كل منهما ، فانها في الواقع تعتبر كشفاً له قيمته ، فان القطعة المنقولة عن « تاريخ تنيس » بوجــه خاص تتضمن وصفاً كاملاً رائعاً لتخطيط المدينة وأقسامها وسورها وأرباضها ، وما كان بها من دور للحكومة ومن منشآت ومرافق عامة ، وهو وصف قلّ أن نجد له شبيهاً في دقته واستيفائه فيما وصلنا من أوصاف في كتب الخطط وتواريخ المدن الإسلامية

والمخطوطة موجودة في دار الكتب المصرية بالقاهرة تحت رقم ١٨٥٢ أدب ، وتقع في ٨٥ ورقة ، وتتكون من قسمين :

ـ القسم الأول قطعة من كتاب الأمالي لأبي علي القالي ، وتنتهي بنهاية الورقة ١٠

ـ والقسم الثاني ويضم مجموعة من الموضوعات المختلفة أهمها قطعة من « تاريخ دمياط » ، وقطعة من كتاب « أنيس الجليس في أخبار تنِّيس » ، ويتكون من الخمس وعشرين ورقة الباقية ، وقد ذكرت القطعة الأولى المأخوذة من « تاريخ دمياط » في الجزء السادس من فهارس دار الكتب المصرية الخاص بالعلوم الجغرافية تحت عنوان : « قطعة من كتاب لم يعلم مؤلفه » ، وعرّفها واضع الفهرس بقوله :

« وتشتمل على وصف مدينة دمياط ، ونبذة من أخبار الصحابة في عهد المقوقس رضوان الله عليهم [1] »

وذكرت القطعة الثانية المأخوذة من تأريخ تنيس في نفس الجزء تحت عنوان : « نبذة في وصف تنيس والجزائر وجزائر البحار » ، وعرّفها واضع الفهرس بقوله :

(١) الجزء السادس من الفهارس الجديدة لدار الكتب المصرية ، ص ٤٧

« مأخوذة من كتاب الأنيس الجليس في أخبار تنيس والجزائر ، للشيخ شمس الدين محمد بن شهاب الدين أحمد ، المعروف بابن بَسّام المحتسب التنيسي ، وصف فيها مدينة تنّيس وموقعها ومساجدها وكنائسها وفنادقها وحوانيتها وأسماكها وطيورها ، ثم ذكر جزيرة إقريطش وجزيرة رودس ، وجزيرة سردينية وجزيرة أرواد ، وجزيرة الزنج ، وجزيرة الديباج ، وجزيرة الزامي ، وجزيرة تريعون ، وجزيرة الراصدي ، وفى آخرها معرفة عظم الأرض وعمارها وخرابها ، مأخوذة من كتاب الجغرافيا لبطليموس ، وهذه النبذة مسبوقة بنبذة أخرى ناقصة من الأول ، تحتوي على فتح المسلمين لمدينة تنيس ، وذكر من حضر من الصحابة ، ووصف مدينة دمياط وما اشتملت عليه [1] »

غير أنه ثبت لي بعد دراسة المخطوطة أن هذه المقتطفات تكون في مجموعها كتاباً مستقلا يحمل عنواناً خاصاً به ، هو « فوائد الموائد » ، وهو من نوع كتب الشذرات والمتفرقات التي يقتصر عمل المصنف فيها على جمع مختارات من قراءاته في الأدب والشعر والتاريخ والقصص والحكم وضمها بعضها الى البعض الآخر لتكون كتاباً واحداً ، فهذا المجموع ، أو كتاب « فوائد الموائد » يشبه الى حد كبير كتاب « المستطرف في كل فن مستظرف » للابشيهي أو كتاب « الكشكول » للعاملي

ويؤكد هذه الحقيقة أن الصفحة الأولى من هذا المجموع مثبت عليها سطور أربعة

- السطر الأول كتب فيه « كتاب فوائد الموائد »
- وفي السطرين الثاني والثالث : « ديوان محمد بن كُزُل العيسوي نائب السلطنة المعظمة بثغر دمياط كان ، رحمة الله عليه »
- وفي السطر الرابع بيت من شعر هذا الشاعر نصه :

فما هو الا ظاهر ومؤيد على ومنصور بشعر مظفرى

وقد تكرر ذكر عنوان الكتاب في السطر الأخير من الورقة ٨٥ وهى آخر ورقة في هذا المجموع ، ونص هذا الختام :

(١) المرجع السابق ، ص ٦٢ ، وانظر أيضاً الجزء الخامس من نفس الفهارس ص ٣٨٠

« تم كتاب فوايد الموايد على بركة الله وعونه ، والحمد لله وحده ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله »

غير أنه يبدو لي أن هذا الكتاب « فوائد الموائد » لم يصلنا كاملا ، وانما هذه قطع منه ، بدليل أن القطعة المأخوذة من تاريخ دمياط ناقصة من أولها ، وتبدأ بهذه الجملة :

« .. فانتهى به الصيد إلى أرض العريش ، فطرد أمامه وحش كبير فطلبه الملك .. الخ »

ومحتويات كتاب « فوائد الموائد » تتلاحق على هذا النسق :

١ — مختارات من كتاب « الأمالي » لأبي علي القالي وتنتهي بنهاية الورقة ٦٠

٢ — قطعة من كتاب « تاريخ دمياط » وتقع في عشر ورقات من الورقة ٦١ الى ٧٠ ، ويبدو أن « تاريخ دمياط » كان مقسما الى أبواب ، فان القسم الأول وينتهي في أوائل الورقة ٦٩ جاء فى ختامه :

« تم فتوح دمياط بعون الله تعالى وقوته ونصره »

ثم يليه في الورقة ٦٩ : « باب في فضائل دمياط »

وفي النصف الأول من الورقة ٧٠ : « باب فى شطا ورملة »

٣ — كتاب « أنيس الجليس في أخبار تنيس والجزائر » ، تأليف الشيخ الإمام العالم العلامة الأديب الحافظ شمس الدين محمد بن الشيخ شهاب الدين أحمد المعروف بابن بسّام المحتسب التنيسي ، رحمه الله ، وتبدأ هذه القطعة بالجملة الآتية :

« ذَكَرَ الشيخُ شمس الدين محمد بن أحمد بن بَسَّام التنيسي المحتسب العالم بتنيس كان ـ رحمه الله ـ في كتابه المصنف في وصف تنيس .. الخ » وتبدأ هذه القطعة فى أول ص ٧٠ أ ، وتنتهي بنهاية ص ٧٨ أ

٤ — فصل في أسماء الأسد وكناه للحسن بن محمد بن الحسن الصغاني وتبدأ بالصفحة ٧٨ ب وتنتهي فى منتصف ص ٨٣ أ ، أما النصف الثاني من الصفحة ففيه مقطوعة شعرية لم يذكر اسم صاحبها

٥ — فصل آخر في أسماء الذئب وكناه للصغاني أيضاً وتشمل الصفحتين ٨٣ب و٨٤أ

٦ — أبيات ومقطوعات شعرية مقتبسة من ديوان الفقير الى الله تعالى ، محمد بن كُزَل العيسوي نائب السلطنة المعظمة بثغر دمياط ـ كان ـ ، رحمة الله عليه وتملأ هذه المقطوعات الثلاث صفحات الأخيرة من المخطوطة من ٨٤ ب الى ٨٥ ب

ومسطرة المخطوطة ١٧ × ٢٥ سم ، والمكتوب منها ١٣ × ١٩ سم ، وعدد السطور في كل صفحة ١٥ سطراً ، وعدد الكلمات في كل سطر ١٢ كلمة

مخطوطة تاريخ دمياط :

هذا وصف موجز سريع للمخطوطة في جملتها ، وسنقف قليلا عند القطعتين المأخوذتين من تاريخ دمياط وتاريخ تنيس لتحقيق كل ما يتصل بها ، ولمحاولة التعرف على مؤلفيها إن أمكن ، ولبيان قيمة ما ورد بها من معلومات تاريخية وأثرية

ـ أما القطعة المأخوذة من « تاريخ دمياط » فتتكون من ثلاثة أبواب :

الباب الأول في «فتوح دمياط »، والباب الثاني في « فضائل دمياط » ،والباب الثالث في « شطا ورملة » .

والباب الأول هو أهمها واكبرها فهو يقع في ست عشرة صفحة ، أما البابان الثاني والثالث فيقعان في صفحتين اثنتين ، وهذا الباب الأول يتحدث عن فتح العرب لدمياط وشطا وتنِّيس والمناطق والجزائر المجاورة مثل : الفرما والبقَّارة والورّادة .. الخ وعن الشخصيات التي شاركت في أحداث الفتح من الروم والعرب جميعاً مثل المقوقس والهاموك وشطا وأبو ثوب (وهو عند المقريزي :أبو ثور) ، ويزيد بن عامر ، وهلال بن أوس ، والمقداد بن الأسود

وكتاب « تاريخ دمياط » لم يذكره أحد من المؤرخين السابقين غير المقريزي في كتابه « الخطط » ، فقد نقل عنه ملخصاً في الفصلين اللذين تحدث فيهما عن مدينتي تنِّيس والوَرَّادة ، وقدَّم لنقوله بقوله : « وقال جامع تاريخ دمياط » ولم يصرح باسمه ، ولم

أستطع أنا أيضاً ـ حتى الآن على الاقل وبعد تحقيقات كثيرة ـ أن أعثر على اسمه ، ولكني قارنت بين هذه القطعة المخطوطـة الفصول التي كتبها المقريزي في خططه عن دمياط وتنيس والورادةوالفرما فتأكد لدي أن هذه القطعة المخطوطة هي دون شك جزء من « تاريخ دمياط » الذي عرفه المقريزي ونقل عنه ، والمقريزي ينقل عن هذا التاريخ نقلا حرفياً في بعض الأحيان ونقلا موجزاً ملخصاً أحياناً أخرى

واتضح لي من هذه المقارنة ومن دراسة المخطوطة حقائق أخرى ، منها :

أن مؤلف الكتاب دمياطي فهو يعنى بذكر فضائلها ومحاسنها ويمجد رجالها والأبطال الذين شاركوا في فتحها سواء أكانوا من المصريين مثل شطا بن الهاموك أم من العرب مثل هلال بن أوس والمقداد بن الأسود

ـ أن الكتاب ألف قطعاً قبل القرن التاسع الهجري (١٥م) وهو القرن الذي عاش فيه المقريزي ، وأنه كان موجوداً بأكمله حتى هـذا القرن بدليل إفادة المقريزي منه ونقله عنه

قد يفسر سكوت المقريزي عن ذكر اسم المؤلف بأنه كان مجهولا لديه أو بأن النسخة التي استخدمها لم تكن تحمل اسم هذا المؤلف ، وإلا لذكره ونسب الكتاب اليه كما كان يفعل في أغلب الأحوال عند النقل عن المؤرخين السابقين

ـ أن هذا الجزء الذي وصلنا من « تاريخ دمياط » ما هو الا قطعة صغيرة جداً منه وانه كان كتاباً كبيراً ، بدليل أن المؤلف يحيل القارىء في نهاية الباب الخاص بفتوح دمياط الى معلومات أخرى سيذكرها في « الجزء الثالث عشر إن شاء الله تعالى »

ـ ان المعلومات الواردة في الفصل الأول الخاص بفتوح دمياط خليط من الأحداث التاريخيةوالقصص التاريخي ، وخاصةتلك الصورة التي رسمها للبطل المصري شطا بنالهاموك الذي أسلم وشارك العرب في فتوح دمياط وتنيس

ـ ذكر المؤلف فيهذه القطعة الباقية من « تاريخ دمياط » كثيراً من الأحاديثالنبوية في فضل دمياط ، ونقل عن اثنين ممن سبقوه وهما :

ـ ابن اسحاق

ـ وبكر بن سهل الدمياطي ، الحافظ

ابن بسام مؤلف أنيس الجليس :

أما مدينة تنيس فهي إحدى المدن المصرية الكبرى في العصر الاسلاي كانت تقوم على جزيرة في الشمال الشرقي من البحيرة التي كانت تحمل اسمها في العصور الوسطي « بحيرة تِنِّيس » وهى المعروفة الآن ببحيرة المنزلة

وكانت تنيس ثغراً من أهم ثغور مصر الشمالية ، ومركزاً من أهم مراكز صناعة النسيج في العصور الإسلامية ، وقد أسهب المؤرخون والجغرافيون والبلدانيون والرحالة القول في وصفها والاشادة بموقعها البحري والحربي وبمكانتها الصناعية الاقتصادية ، وهذه القطعة التي وصلتنا هي جزء من كتاب هام وضع في تاريخها وعنوانه « أنيس الجليس فى أخبار تنيس » وقد ذكر المقتبس صاحب كتاب « فوائد الموائد » اسم مؤلف تاريخ تنيس وهو : الأديب الحافظ شمس الدين محمد بن الشيخ شهاب الدين احمد المعروف بابن بسام المحتسب التنيسي

ولهذا المؤلف كتاب آخر هام في الحسبة ، عنوانه : « نهاية الرتبة في طلب الحسبة » وتوجد منه نسخة مخطوطة في المكتبة التيمورية بالقاهرة

وقد كتب الأب لويس شيخو عن هذا الكتاب ونشر مقتطفات منه في : (مجلة المشرق) السنة العاشرة ، العدد ٢١ ، تشرين الثاني ١٩٠٧ ، ص ٩٦١ ـ ٩٦٨ ؛ العدد ٢٢٣، كانون الأول سنة ١٩٠٧ ، ص ١٠٧٩ ـ ١٠٨٦)

وقد بذل الأب لويس شيخو جهوداً كبيرة ، وبذلت أنا بعده جهوداً أخرى للعثور على ترجمة مفصلة أو موجزة لهذا المؤلِّف ، ولكن دون جدوى ، وقد رجَّح شيخو في مقاله أن ابن بسام عاش في القرن ٧ (١٣ م) أو القرن ٨ (١٤ م) لأنه أثبت أن ابن بسام نقل كتاب الشَيْزَري في الحسبة الذي يحمل نفس العنوان ، وأضاف اليه أبواباً جديدة ، والشيزري

عاش كما هو ثابت من ترجمته في أواخر القرن السادس الهجري (١٢ م) وقد لاحظت أن هناك شبهاً كبيراً بين المعلومات التي أتى بها ياقوت عند حديثه عن تنيس في كتابه « معجم البلدان » وبين المعلومات الواردة فى « أنيس الجليس » ، وخاصة تلكما القائمتين المشتملتين على اسماء الطيور والاسماك الموجودة في تنيس فانهما تكادان تكونان شيئاً واحدا، ومما يلفت النظر أن ياقوت نصَّ على أنه نقل القائمة المشتملة على اسماء الطيور من كتاب « تاريخ تنيس» وان كان لم يفصح عن اسم مؤلفه ، قال : « قال صاحب تاريخ تنيس : ولتنيس موسم يكون فيه من أنواع الطيور ما لا يكون في موضع آخر ، وهى مائة ونيف وثلاثون صنفاً ... الخ »

وقد تساعدنا هذه الإشارة على تحديد الوقت الذي عاش فيه ابن بسام ، فاذا كان كتاب تاريخ تنيس الذي نص ياقوت على أنه نقل عنه هو « أنيس الجليس » لابن بسام ، فاننا نستطيع أن نقول إن ابن بسام عاش في أواخر القرن السادس الهجري أو أوائل القرن السابع وبمعنى آخر قبل سنة ٦٢٦ هـ وهى السنة التي توفي فيها ياقوت

ونستطيع بعد دراسة مخطوطة « أنيس الجليس » ، وبعد استشارة المراجع التاريخية التي أرخت لمدينة تنيس أن نحدد التاريخ الذي عاش فيه المؤلف والتاريخ الذي ألف فيه الكتاب تحديداً أكثر دقة

فابن بسام أشار في « أنيس الجليس » إلى أنه رجع الى كتاب « المسعودي » : « مروج الذهب » و « أخبار الزمان» ونقل عنهما ، والمسعودي عاش في النصف الأول من القرن الرابع الهجري ، وهذا يعنى أن ابن بسام عاش بعد القرن الرابع الهجري

وآخر حاكم مصري أشار اليه ابن بسام فى متنه الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله ، فقد قال عند ذكر ما كان في تنيس من كنائس : « وكان بها ـ يعنى تنيس ـ من الكنائس أثنتان وسبعون كنيسة الى أن أمر بهدمها الحاكم بأمر الله ـ رحمه الله ـ في سنة ثلاث وأربعمائة ، وجعل عوضها مساجد »

وآخر سنة أشار اليها هي سنة ٤٠٥ ، فقد قال : « وبها من الفنادق والقياسر خمسون سواء ، ثم بنى في سنة خمس وأربعمائة ستة آدر للتجار كبار ، فصار الجميع ستة وخمسون موضعاً ... الخ » ، وهذا يعنى أيضاً ان ابن بسام عاش بعد عصر الحاكم بأمر الله ، وبعد سنة ٤٠٥ بالذات

وابن بسام يصف مدينة تنيس وأرباضها وخططها ومساجدها وفنادقها ومصانعها وأهليها وصفاً تفصيليا دقيقاً يعطى صورة حية واضحة للمدينة في أحسن حالة من حالات عمرانها عندما كانت عامرة بمبانيها ودورها ومنشآتها آهلة بسكانها الذين يقدرهم ابن بسام بما لا يقل عن ٥٠٫٠٠٠ نسمة ، وهو وصف لا يستطيع أن يقدمه إلا من عاش في المدينة ردحاً من الزمن وابن بسام وصف في ديباجة « أنيس الجليس » بأنه الشيخ شمس الدين محمد بن احمد بن بسام التنيسي المحتسب ، العالم بتنيس ـ كان ـ ، فليس هناك شك في أنه من أبناء تنيس ، وأنه كان من علمائها ، وتولى الحسبة فيها وفى المخطوطة إشارة صغيرة متوارية الى أن ابن بسام كان يعيش في تنيس وقت عمرانها أي قبل هدمها وتخريبها والى أنه كان يملك مصنعاً من أكبر مصانعها ـ أي مخزناً من أكبر مخازن الماء فيها ـ ، فقد وصف مصنعاً للماء كبيراً بناه بالمدينة عبد العزيز الجَرَوى ، ثم أردف الوصف بقوله : « ولكاتب هذا مصنع آخر دون هذا »

وقد ظلت تنيس عامرة آهلة حتى أوائل العصر الأيوبي ثم أخذت تهددها ـ كما تهدد جارتيها الفَرَما ودمياط ـ غارات الصليبيين من البحر بأساطيلهم ، وقد بذل صلاح الدين جهوداً كبيرة لتحصين تنيس حتى تستطيع أن تقاوم هذه الغارات

يقول المقريزي : « وفي سنة ٥٧٧ هـ انتدب السلطان لعمارة قلعة تنيس وتجديد الآلات بها عندما اشتد خوف أهل تنيس من الإقامة بها ، فقدَّر لعمارة سورها القديم على أساساته الباقية مبلغ ثلاثة آلاف دينار ثمن أصناف وآجُر [1] »

ولكنه اضطر قبل موته بسنة أن يأمر باخلائها ، قال المقريزي : « وفي سنة ٥٨٨

(١) المقريزي ، الخطط ، ج ١ ، ص ٢٩٢

كتب باخلاء تنيس ونقل أهلها الى دمياط ، فأخليت في صفر من الذراري والاثقال ، ولم يبق بها سوى المقاتلة في قلعها [1] »

وفي سنة ٦٢٤ أمر الملك الكامل محمد بهدم المدينة وتخريبها حتى لا ينزل بها الصليبيون، وبذلك زالت من الوجود مدينة كانت من أكبر المدن الصناعية في مصر الاسلامية كما كانت ثغراً من أقوى ثغورها ، قال نفس المؤلف : « وفي شوال من سنة ٦٢٤ أمر الملك الكامل محمد بن العادل أبي بكر بهدم مدينة تنيس، وكانت من المدن الجليلة تعمل بها الثياب السرية وتصنع بها كسوة الكعبة [2] »

نستطيع إذن أن نقول إن المؤلف كان يعيش في تنيس قبل سنة ٥٨٨ هـ أو على الأكثر قبل سنة ٦٢٤ هـ وأنه ألف كتابه قبل هذه السنة ، لأن مدينة تنيس العامرة الآهلة التى وصفها ابن بسام فى كتابه هذا زالت من الوجود ولم يعدلها كيان في هذه السنة ، ولم يعرف أنه أعيد تخطيطها وتعميرها كما حدث لدمياط مثلا بعد أن هدمت في أعقاب حملة لويس التاسع عليها.

ونستطيع أخيراً أن نخرج من هذه الدراسة التحليلية المقارنة بهذه الحقيقة : وهي أن المؤلف عاش في الربع الأخير من القرن السادس والربع الأول من القرن السابع ، وأنه ألف كتابه خلال هذه المدة ، ونستطيع كذلك أن نستبعد أن ابن بسام كان من رجال القرن الثامن الهجري كما افترض الأب لويس شيخو ، وكما تبعه في فرضه الدكتور الباز العريني في مقدمته لكتاب « نهاية الرتبة » للشَيْزَرى

دراسة تحليلية لمخطوطة « أنيس الجليس في أخبار تنيس » :

ويبدو أن القطعة التى وصلتنا من تاريخ تنيس لا تشمل الكتاب كله ، بل هي مقتبسات منه ، فهي تقع في عشر صفحات فقط ، ومع هذا فانها تتضمن معلومات قيمة ونادرة لم تذكرها المراجع الأخرى التى كتبت عن تنيس ، ففيها وصف تفصيلي دقيق لخطط المدينة وميناءها وأسوارها وأبوابها ودار الحكومة بها وفنادقها ومساجدها وكنائسها ومصانعها .. الخ

---

(١) و (٢) المرجع السابق ، نفس الجزء والصفحة

بدأ المؤلف بتحديد موقع الجزيرة فقال إنها تقع في الاقليم الرابع ، وأوضح ما لهذا الموقع من أثر في صحة هوائها ورقة طبائع أهلها وقلة وبائها ، وذكر أن الأهالي يدخرون ماء النيل عندهم عند صفائه في جباب أو صهاريج خاصة

والمدينة كما وصفها المؤلف كانت شبه مستطيلة ، فطولها من الشمال الى الجنوب ٣٢٢٧ ذراعاً وعرضها من الشرق الى الغرب ٣٥٨٠ ذراعا وكان يحيط بها سور ذرعه ٣٢٨٥ ذراعاً[1] ، ولهذا السور أبواب كانت عدتها ١٩ بابا ، وكان واحد منها مصفحا بالنحاس ، وما سواه مصفح بالحديد ، وكان يتصل بالسور كذلك قنطرتان يُسلك تحتها الى ميناءين ، لكل منهما باب مصفح يمنع من يريد أن يدخله أو يخرج منه بغير إذن

ثم قدّم ابن بسام إحصاء طريفاً نادراً لكل ما كان في المدينة من مساجد وكنائس وفنادق وقياسر وحوانيت ودكاكين ومعاصر وطواحين وحمامات ومناسج

فالمدينة كان بها ١٦٠ مسجداً سوى المسجد الجامع ، ولكل مسجد منها منارة ، وقد وصف ابن بسام المسجد الجامع وصفاً تفصيلياً ، فقال :

إن طوله من جهة القبلة الى جهة البحر مائة وإثنا عشر ذراعاً وعرضه من المشرق إلى المغرب واحد وسبعون ذراعاً وكانت له زيادة ملاصقة له طولها سبعون ذراعاً وعرضها ٢٩ ذراعاً وكانت العناية بهذا المسجد الجامع كبيرة فقد كان يوقد فيه في شهر رمضان ثلاثة آلاف مصباح ومائة مصباح ومائتان وخمسون شمعة ، ويوقد فيه في كل ليلة ألفان وثمانمائة مصباح

وذكر المؤلف أنه كان بتنيس اثنتان وسبعون كنيسة الى أن أمر بهدمها الحاكم بأمر الله فى سنة ٤٠٣ هـ وجعل عوضها مساجد

أما الفنادق والقياسر فكان عددها خمسين ثم بنى في سنة ٤٠٥ هـ ستة آدر كبيرة للتجار فصار الجميع ستة وخمسين

وأما الحوانيت فكان عددها ألفين وخمسمائة

(١) وقد قدر المؤلف طول هذا المحيط بالأميال فقال إنه يساوى ميلا ونصف ميل وثمن ميل ونصف عشر ميل

وكان بها مائة معصرة ، تختلف كبراً وصغراً ، فأصغرها يعمل بها رجلان ، وأكبرها يعمل بها عشرون رجلا

وكان بها من الدكاكين التى يباع بها البـَزُّ وأنواع الثياب مائة وخمسون دكانا

وكان بها من الأرحية أي الطواحين ، مائة وستون ، مهما ما يشتمل على مدار واحد ، ومهما ما يشتمل على مدارين ، ومنها ما يشتمل على خمسة أحجار ، وبها مقشرة ومعجنة

وكان بها من الحمامات العامة ستة وثلاثون حماماً ، سوى الحمامات الخاصة التى يبنيها بعض الأهلين ملحقة بدورهم

وكان بها من المناسج ـ أي دور الطراز أو مصانع النسيج ـ خمسة آلاف منسج وكان عدد العمال الذين يعملون فيها عشرة آلاف عامل سوى من يُطَيِّب أو يُرَقِّم من ذكر وأنثى ؛ وقد أشار صاحب تاريخ تنيس الى ضخامة انتاج هذه المناسج وتنوعه واتقانه ، وأمدنا في هـذا الوصف بكثير من أسماء الأقمشة الفاخرة التى كانت تنتجها تنيس ، قال : « عـدد ما فيها (أي المناسج) من الأسفاط ألف وخمسمائة سَفَط ، ومن الرُزَم ألفا رزمة ، وبرسم خزانة السلطان أربعمائة سفط ، فيها من الامتعة ما لا يرى مثله ، مذهبة على هيئة المخيطة منسوجة ، الثوب الواحد منها بألف دينار ، ومناديل ، المنديل بخمسمائة دينار ، ومراتب المرتبة بألف دينار ، ومطارد ، ومقاطع ، ومفارش ، وستور ، ومحمل ، ومُعَيَّن ، وسقلاطون دَبيقي ، ومُصْمَت دَبيقي ، وعتابي ، وما لا يمكن وصفه »

أرباض المدينة :

ولم يكن العمران مقصوراً على المدينة التي تحيط بها الأسوار ، بل كانت لها أرباض أربعة تحيط بها من كل جهاتها ، وفي كل ربض من هذه الأرباض تقوم الدور والمنشآت والمرافق العامة ، بعضها حكومي ، وبعضها مما يتصل بالصناعات القائمة في المدينة ، وقد حدد ابن بسام الدور والمنشآت والمرافق العامة القائمة في كل ربض على النحو الآتي :

١ — الربض الغربي ، وكانت تقوم فيه :

دار الصناعة ، أي دار صناعة السفن

دار الإمارة

حمامات للرجال

عرصتان عظيمتان يرد اليهما ما يُحمل الى تنيس من البلدان القريبة والبعيدة

٢ — الربض الشرقي ، وكانت تقوم فيه :

الديوان الكبير ، ويشتمل على عدة دواوين ، (ولعله يقصد ديوان الجمرك الذي يحصل الضرائب المفروضة على التجارة الواردة على المدينة ، أو لعله يقصد دواوين الحكم بوجه عام التي تشرف على شئون المدينة الإدارية والمالية وغيرها)

دواليب تنقل الماء وقت غيوبه (؟) وزيادته الى مصانع المدينة وحماماتها

مطاحن جبس ، ومواقد جير

اصطبل السلطان.

الربض القبلي ، وكانت تقوم عليه :

دواليب أخرى لنقل الماء الى المصانع والحمامات

أخصاص كبيرة لا تحصى (وأغلب الظن أنها الأخصاص التي كان يعيش فيها الصيادون)

ديوان السمك ومخازن الأصيار

أرض تنبت الملح ، أي ملاحات لاستخراج الملح ، وقد وصف المؤلف الملح الناتج منها بالجودة فقال إنه كان يفوق بضيائه وعذوبته وكثرته كل ملح

الربض البحري ، وكانت تقوم عليه :

مساجد وكنائس

مفارش لتبييض الأمتعة ، وحجارة لضرب الثياب

هدف للرماة

مصليان ، أحدهما لجنائز الموتى ، والآخر لصلاة العيدين

صناعة صيد الأسماك والطيور :

واذا كانت صناعة النسيج هي الصناعة الأولى بالمدينة ، فقد كانت الصناعة الثانية هي صناعة الصيد ، صيد السمك ، وصيد الطيور ، ولهذا فقد انتقل بعد وصفه لخطط المدينة وأرباضها الى الحديث عن هذه الصناعة ، وكل ما يتصل بها ، وبدأ بصيد الأسماك ، فذكر أن المدينة كان بها من المراكب الموسومة لصيد السمك في البحيرة ثلاثمائة واثنين وسبعين مركباً ، واكثر ما تحمل المركب منها ستين رجلا ، وأقله ثلاثة رجال ، وقد تصيد هذه المراكب في بعض الأوقات ما يباع بمائة دينار أو أكثر

ثم أردف هذا الوصف بقائمة نادرة لأسماء هذه المراكب لا نجد لها شبيهاً في المراجع الأخرى ، فمنها : الجرافات ، والانكبارات ، والعينات ، والسد ، والطراحين ، والجراجن ، والباريات ، ومراكب الترعة والفلاحين والطباخين ، ومراكب القَوْد ، والدق ، ومراكب المضارب ، ومراكب القرندس ، ومراكب اللبانين ، ومراكب الدور

وقدم بعد هذا قائمة كاملة بأسماء الأسماك التي كانت تصاد فى تنيس وعددها ٦٣ نوعا وكان إيراد الحكومة من المكوس المفروضة على صيد هذه الأسماك كبيراً وقد قدره صاحب الكتاب بخمسين ألف دينار في السنة ، وكان يشرف على هذه الصناعة وعلى جمع هذه المكوس ديوان خاص يسمى ديوان الأسماك موقعه في الربض القبلى كما سبق أن ذكرنا.

وانتقل ابن بسام بعد هذا الى الحديث عن صيد الطيور ، فقال إن عدة المراكب التي تصاد بها الطيور في جزيرة تنيس ، وتعيش من كسبها مائة وثلاثة عشر مركباً ، ثم قدم قائمة أخرى بأسماء الطيور التي كانت تصاد هناك وهى نيف ومائة صنف

وأشار المؤلف بعد هذا الى النشاط التجاري بين مدينة تنيس وموانى الشام ، وقال إن السفن التي كانت تنقل هذه التجارة مختلفة الأنواع ، فمنها القوارب والكمائم ، والعشاريات ، وأن عدد السفن الواردة الى تنيس من الشام كانت تبلغ فى كل سنة خمسمائة مركب اكثرها ترد في الصليبية والربيعية ، هذا عدا المراكب الوافدة عليها من اقليم مصر

والصعيد والاسكندرية وأقصى الريف ، وهذه كما قال المؤلف مما لا يضبط عدده لكثرته، وترد بأنواع الخيرات من الفواكه وغيرها

سكان المدينة :

وبين سطور هذا الوصف الطبوغرافي العمراني يجد القارىء لفتات وإشارات حاول المؤلف أن يكوّن منها صورة حية لسكان مدينة تنّيس ، وهذه اللفتات والاشارات ـ رغم أهميتها العظمى ـ لم يعن بتسجيلها مؤلفو كتب الخطط الآخرون ، فهم في العادة يعنون بوصف الجماد ولا يعنون بوصف الأحياء

أما ابن بسام فقد ضمَّن هذه القطعة الصغيرة من تاريخ تنيس فقرات متناثرة لوصف سكان تنيس ومزاجهم وطباعهم ، فقال إن المدينة كانت تمتاز بصحة هوائها ورقة طبائع أهلها وصنائعهم حتى أن الميت لا تفسد جثته سريعاً ، ولا يتساقط شعره من جسمه ، ثم ضرب مثلا على صحة هواء المدينة وقلة الوباء بها فقال : « إن اكثر من يعمل بها الأمتعة يأكلون الأسماك والأطعمة الزفرة ولا يغسلون أيديهم ، ويعودون الى رَقمهم ونسجهم ولا يُشَمُّ من روائح تلك الزهومات شيء ، بل يطيب نسجُه ، ويستلذ نشره » ، وساق المؤلف دليلا آخر على صحة هواء المدينة وخلوها من الحشرات فقال إنه لا يوجد في خبزها ولا بُرِّها ولا في أرضها ولا في بنائها شيء من الحيوان المهلك والدبيب المؤذي

أما سكان المدينة فهم أهل فن ، يستخفهم الطرب ويحبون سماع الأغاني ، ويجيدون الرسم والتصوير والنقش والتلوين ، وهم كأرباب الفنون في كل زمان ومكان يقبلون على الحياة ويحسنون الاستمتاع بأطايبها ، ويألفون الغريب ويقبلون عليه بكل قلوبهم ، ويحبون السفر ويكرمون الغريب والمسافر ، ولا يحملون في أنفسهم غِلّا ولا حقداً ، هكذا وصفهم المؤلف ، وأنت تُحِسُّ حين تقرأ وَصفه أنه يفخر بمواطنيه ويعتز بمالهم من سجايا طيبة ، فهو يقول :

« ولذلك كثر طرب نفوس أهلها وفرحهم ورغبهم في مداومة اللذات واستماع الأغاني

ومواصلة المسرات ، والرغبة في الراحة ، واطراح ما يوجب التعب والمشقة ، والحب للنقش والصورة والرَّقْم والتلوين بالأصباغ ، وعلى قلة الضجر في السفر ، وترك المخالفة لمن يصاحبون ، وكثرة المبالغة لمن يألفون ، وحسن المؤازرة لمن يستخدمهم ، ومحبهم للغرباء والمسافرين ، والمواظبة على مسرتهم وسرورهم ومنفعتهم ، وتركهم للحسد لمن يحبونه ، والعتب على زلته ، ويمدحونه ويفضلونه ، ويلومون أنفسهم في التقصير عن إخائه وما يستحقه ، والقيام بذلك »

وكان معظم اعتماد السكان في معاشهم ، وفي مأكلهم ومشربهم بوجه خاص على ما يأتيهم من خارج جزيرتهم ، اذ لم يكن لديهم من أنواع المأكل غير ما يصيدون من أسماك أو طيور ، أما بقية المأكولات وخاصة القمح والشعير والفواكه فقد كانت تحملها إليهم السفن الوافدة من الشام أو من إقليم مصر والصعيد والاسكندرية ، وكانت هذه السفن ترد ـ كما يقول المؤلف ـ بأنواع الخيرات من الفواكه وغيرها

وأما الماء فكان يحمله إليهم الفرع التنيسي وكانوا يدخرونه في موسم الفيضان في جباب وصهاريج ومصانع معدة لذلك ، وكانت بالمدينة دواليب تنقل الماء وقت زيادته الى مصانع المدينة وحماماتها ، وقد أحصى المؤلف هذه المصانع ووصفها بقوله : « وبتنيس مصنعتان عظيمتان ، تنسبان الى عمر بن حفص ، مكشوفتي السقوف ، والغربي منها أحد وعشرون بيتاً ، والشرقي ثمانية عشر بيتا ، ومصنع مسقف وسط المدينة بناه عبدالعزيز الجَرَوي، ينقل إليه الماء على دولاب يشتمل عليه ستون قادوساً مدة شهرين كاملين بلياليها يسع كل قادوس فى تفريغة في يوم وليلة ألف جرة ، مِلْء كل جرة أقساط من ماء ، فيكون هذا المصنع ثلاثة ألف ألف ألف جَرَّة وستمائة جَرَّة ... ولابن طولون ثلاث مصانع ، أحدها بالقرب من السوق ، والآخر فى زيادة الجامع » ثم أردف المؤلف انه كان له مصنع خاص به في المدينة ، قال : « ولكاتب هذا مصنع آخر دون هذا »

ولأول مرة نجد مؤلفاً عربيا يقدِّم إحصاءً للسكان ، ويبني تقديره على أساس علمي ،

فقد أورد ابن بسام في مخطوطته هذه عدد أرادب القمح والشعير والقطاني التي يستهلكها سكان تِنِّيس في اليوم وفي السنة ، وعلى أساس هذا التقدير استنتج أن السكان كانوا خمسين ألفا ، ولكنه شأن العالم المحقق استدرك فقال إن هذا الرقم قد لا يكون دقيقاً ، وأنه قابل للزيادة والنقصان لأن بعض الحاكة من سكان المدينة قد يدخرون الخبز المجفف لفصل الشتاء ، ولا يعتمدون على الدقيق الذي يطحن كل يوم ، قال : « وقد يزيد على ذلك زيادة تقل وتكثر ، مع اختلاف السنين ، لأن الحاكة يصلحون من الخبز الجريش المجفف في الشمس ما يدخرونه للشتاء وقصر النهار ، فيستغنون عن طحنه »

مصير مدينة تنيس منذ خربت الى الآن :

هذه هي أهم محتويات القطعة المخطوطة التيوصلتنا من كتاب « أنيس الجليس في تاريخ مدينة تنيس » لابن بسام المحتسب التنيسي ، أما المدينة نفسها فقد رأينا كيف أمر السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب في سنة ٥٨٨ (١١٩٢ م) باخلائها من السكان وألا يبقى فيها غير المقاتلة للدفاع عنها ، وكيف أمر السلطان الملك الكامل محمد في سنة ٦٢٤ هـ (١٢٢٦ م) بهدم المدينة وتخريبها حتى لا ينزل بها الصليبيون ، فقدكانوا حينذاك على أهبة الاستعداد للمجيء الى مصر بحملة جديدة وانهى هذا الاستعداد بارسال الحملة الصليبية الخامسة فيسنة ٦٣٠ (١٢١٩م) بقيادةجانديبريين ، فنزلت علىدمياط ثم منيت بالفشل ـ وهكذا تلاشت من الوجود مدينة من اكبر مدن مصر الصناعية والحربية فى العصور الوسطى ، وبقيت أنقاضها واطلالها تتحدث عن مجدها الغابر وعزها الداثر ، وسكت المؤرخون والرحالة والجغرافيون والأثريون الذين كتبوا بعد النصف الأول من القرن الثالث عشر عن التحدث عنها أو الإشارة إليها ، ولا نكاد نجد لها ذكراً الا فى بعض كتب الرحالة الاوربيين الذين زاروا مصر أو مروا بها ، فمن هؤلاء فرانيكولو دا كوربتزو Franicolo da Corpizzo ـ ويفهم مما ذكره في رحلته أن المدينة أثناء زيارته لها فى سنة ١٣٤٥ م (القرن الثامن الهجري) لم يكن بها غير القلعة تقيم بها حامية للدفاع ،

فقد ذكر أنه دفع لقائد هذه الحاميـــة ضريبة عن نفسه وعن أصحابه وفي سنة ١٤٢١ (ق ٩ هـ) زار المدينة الرحالة جلبرت دي لانوى Jillebert de Lannoy فلم يجد بها إلا أنقاضاً وصفها في رحلته

ومن المؤسف حقاً أن أطلال هذه المدينة ظلت نهباً مشاعا للصيادين فى بحـــيرة تنيس (المنزلة) من سكان القرى الأخرى المطلة على هذه البحيرة مثل المطرية والمـنزلة وغيرها ، يسطون عليها للبحث عما بين جدرانها من نفائس ، ولنقل أنقاضها مـــن أحجار وطوب وأخشاب ورخام ليستعملوها في إقامة المباني الجديدة بهذه القرى

ولقد التفتت مصلحة حفظ الآثار العربية في مطلع هذا القرن الى أهمية هذه الأطلال فأرسلت فى مارس سنة ١٩١٠ أحد مفتشيها من مهندسي المصلحة وهو المهندس الايطالي باتروكلوا Patricolo[١] لزيارتها وقد كتب تقريراً باللغة الفرنسية عن هذه الزيارة نشر في كراسات هذه اللجنة (مجموعة سنة ١٩١١) ، وذكر في هذا التقرير أنه لم يعد بين هـــذه الأطلال ما يستحق الدراسة غير أنقاض قلعة المدينة ، وغير ما بها من صهاريج للماء ، وقد درس هو خلال هـــذه الرحلة بقايا أربعة من هذه الصهاريج ووصفها وصفاً معماريا أثريا وأرفق بتقريره عدداً من اللوحات لبيان قطاعات لهذه الصهاريج

وقال محمد رمزي فيالقاموس الجغرافى للبلاد المصرية (ج ١ ص ١٩٨) : « وبالبحث تبين لي أن الجزيرة التى كانت بها مدينة تنيس لا تزال موجودة الى اليوم ببحيرة المنزلة ومعروفة بجزيرة تنيس ، وبها بعض بقايا من الطوب الأحمر المخلف من مبانيها القديمة »

وآخر من زار تنيس فيما نعلم هو الأستاذ نقولا يوسف ـ أحـد أبناء دمياط ـ فقد قام فيسنة ١٩٥٣ بجولة فى بحيرة المنزلة وفىالجزر المتناثرة فيها والمدن المطلة عليها ، وكتب وصفاً لرحلته هذه في جريدة « أخبار دمياط » وأهم ما جاء في هذاالوصف قوله : « وماذا

(1) Patricolo (A) = Rapport sur les Citernes de Tell Tinnis, dans le Lac Manzaleh, dans : (Comité de Conserva Tion des Monuments de l' Art Arabe . Exercice 1910 Fas Xvii, re Caire 1911 p. 65 68)

يلقى الجائل اليوم بتنيس غير كثبان الرمال وقد تشربت بمياه المطر فتركت طبقات هشة تكسو وجه الأرض وغير أكمات وتلال فاتحة اللون يعلو بعضها بضعة أقدام والبعض الآخر بضعة أمتار ، تطوى تحت ترابها بقايا المدينة العظمى وذكرياتها .. » الى أن يقول : « ولن يعثر الباحث الا على قطع من الخزف هنا وحطام صهريج هناك »

ولكن الجدير فيما كتبه قوله إن حريقاً شب في مدينة المطرية في سنة ١٩٠٧ فقضى على معظم مبانيها ، فاضطر سكانها أن يلجأوا الى جزيرة تنيس ينقلون من أحجارها وانقاضها ليعيدوا بها بناء منازلهم ، قال الاستاذ نقولا يوسف :

« وكان معنا في القارب شيخ من أهل المطرية سمعنا نتحدث عن تنيس فراح يقص علينا شيئاً من ذكرياته ، قال : كانت جزيرة تنيس إلى عهد قريب مليئة بالانقاض والحطام ، وكانت تلك البقايا والأنقاض مهملة لا رقيب عليها ولا حسيب ، يعبث بها ويحمل منها كل من يشاء خلسة بالليل أو جهاراً بالنهار ، ثم وضعت الحكومة بعض الخفراء لحراسة تلك الأنقاض ، غير أن ذلك لم يحل بين سكان المدن المجاورة من أن يعبروا البحيرة إليها كل يوم ويحملوا في سفنهم الأنقاض والأحجار والآجر والرخام الى حيث تباع أو تستخدم فى بناء البيوت ، وكان أن شب عام ١٩٠٧ حريق كبير أودى بمدينة المطرية ، فعمد سكانها الى نقل الأنقاض من تنيس للاستعانة بها في بناء بيوت جديدة في مدينتهم حتى خلت الجزيرة من كل أثر اللهم إلا من سرداب طويل كان فيما مضى صهريجاً من صهاريج تنيس الكثيرة لخزن الماء .. »

وبعد فما قصدت بهذا البحث إلا التنويه بهذه المخطوطة القديمة وأمثالها من كتب البلدان باعتبارها مصادر ذات قيمة كبرى لعلماء الآثار ، والا تنبيه الأذهان الى هذه المدينة المصرية المندثرة ، وحبذا لوعنى علماء الآثار العربية في ج ع.م.بارسال بعثة للحفر فى أطلال هذه المدينة ولدراسة ما بقى منها على ضوء هذا الوصف الجغرافي الذي أمدنا به صاحب « أنيس الجليس في أخبار تنيس »

القسم الثاني

كتاب أنيس الجليس في أخبار تنيس

تأليف الإمام العالم العلامة الأديب الحافظ شمس الدين محمد بن الشيخ شهاب الدين أحمد المعروف بابن بسَّام المحتسب التِنِّيسي، رحمه الله ، آمين

بسم الله الرحمن الرحيم

اللهم صلِّ على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

ذكر الشيخ شمس الدين محمد بن أحمد بن بَسَّام التِنِّيسي المحتسب العالم بتِنِّيس ـ كان ـ رحمه الله في كتابه المصنف في وصف تِنِّيس :

أنها من الإقليم الرابع ، لصحة هوائها ، ورقَّة طبائع أهلها وصنائعهم

وأن الميت بها لا تفسد جثته سريعا ، ولا يتساقط شعره عن جسمه

وأن أكثر مَنْ يعمل بها الأمتعة يأكلون الأسماك والأطعمة الزفرة ولا يغسلون أيديهم ، ويعودون إلى رَقْمهم ونسجهم ولا يُشَمُّ فيه من روائح تلك الزهومات شيء ، بل يطيب نسمه ، ويستلذ نشره ، وذلك الدليل على صحة الهواء ، وقلة الوباء

وهم يدخرون ماء النيل عندهم عند صفائه في جباب لهم مستعدة

وطول هذه المدينة من جهة الشمال ـ وهي البحرية ـ وإلى جهة الجنوب ـ وهي القبلية ـ من الباب المعروف بباب القُرْط ثلاثة آلاف ذراع ومائتا [1] ذراع وسبعة وعشرون ذراعاً بالذراع الكبير الذي طوله أربعة وعشرون إبهاما

---

(١) الاصل : « مائتي »

وعَرْضُها من الباب الصغير إلى الباب المعروف بديرنية ثلاثة آلاف وخمسة وثمانون ذراعاً بالذراع المقدَّم ذكره

وذَرْعُ سورها ثلاثة آلاف ذراع ومائتان وخمسة وثمانون ذراعاً ، يكون ذلك من الأميال ميلا ونصف ميل وثُمْن ميل ونصف عُشر ثُمْن ميل .

وعدد أبواب هذه المدينة - أبواب السور التي يُدخل منها ويُخرج - تسعة عشر بابا ، واحدٌ منها مُصَفَّح بنحاس (٧١) وما سواه مُصَفَّحٌ بالحديد وقنطرتان يسلك تحتهما إلى ميناءين ، لكل ميناء منها باب مصفح بالحديد يمنع مَنْ يريد أن يدخله أو يخرج منه بغير إذن

وجميع مساجدها ومحاربها الداخلة فيها والخارجة منها سوى الجامع مائة وستون مسجداً

وأما الجامع فطوله من جهة القبلة إلى جهة البحر مائة واثنا[1] عشر ذراعاً ، وعرضه من المشرق إلى المغرب إحدى وسبعون ذراعا ، وطول زيادته الملاصقة له والمسافة إليه سبعون ذراعا ، عرضها تسعة وعشرون ذراعا ويوقد فيه في شهر رمضان ثلاثة آلاف مصباح ومائة مصباح ، ومائتان وخمسون شمعة وكان يوقد في كل ليلة فيه ألفان وثمانمائة مصباح

وفي كل مسجد من مساجدها منارة

وكان بها - يعني بتنيس - من الكنائس اثنتان وسبعون كنيسة إلى أن أمر بهدمها الحاكم بأمر الله - رحمه الله - في سنة ثلاث واربعمائة ، وجعل عوضها مساجد

وبها من الفنادق والقياسر خمسون سواء ثم بنى في سنة خمسة وأربعمائة ستة آدر للتجار كبار فصار الجميع ستة وخمسين موضعاً

وبها من الحوانيت ألفان وخمسمائة حانوت

---

(١) الأصل : « اثنى »

وبها مائة معصرة ، أعداد رجالها مختلفة ، وأقلهم اثنان وأكثرهم عشرون

وبها من الدكاكين التي يباع بها البَزّ وأنواع الثياب مائة وخمسون دكاناً

وبها من الأرْحِيَة – يعني الطواحين – مائة وستون ، فيها ما يشتمل على مدار ، ومنها على مدارين ، ومنها ما يشتمل على خمسة أحجار مقشرة ومعجنة

وبها من الحمامات ستة وثلاثون سوى ما يتخصص بها أهلها في دورهم

وبها من المناسج التي تعمل فيها الثياب خمسة آلاف منسج : عدد عمالها عشرة آلاف نفس سوى من يُطَيِّب أو يُرقِّم من ذكر أو أنثى ، عدد ما فيها من الأسفاط ألف وخمسمائة سَفَط ، ومن الرُّزم الف رزمة وبرسم خزانة السلطان أربعمائة سفط فيها من الأمتعة ما لا يرى مثله : ثياب مذهبة على هيئة المخيطة منسوجة ، الثوب الواحد بألف دينار ومناديل ، المنديل بخمسمائة دينار ،ومراتب: المرتبة بألف دينار ومطارد ومقاطع ومفارش وستور مُخَمَّل ومُمَعَيَّن وسقلاطون دبيقي ومُصْمَت دبيقي وعتَّابي وما لا يمكن وصفه

وبالرَّبض الدائم بسور المدينة مما يلي الغرب : الصناعة ، ودار الامارة ، وبينهما حمامات للرجال ، وعرصتان عظيمتان[1] يرد إليهما ما يُحمل من البلدان القريبة والبعيدة

وفي الرَّبض الآخر : الديوان الكبير ، ويشتمل على عدة دواوين وفيه دواليب تنقل الماء وقت غيوبه [2] وزيادته إلى مصانع هذه المدينة وحماماتها ، وفيها مطاحن جِبْس ، ومواقد جير ، واصطبل السلطان

وفي الربض القبلي دواليب لنقل الماء الى المصانع والحمامات ، وفيه أخصاص كبيرة لا تُحصى ، وفيه ديوان السمك ومخازن الأصياد ، وبالقرب منه أراض تنبت الملح الذي يفوق بضيائه وعذوبته (٧٢) كل ملح وبكثرته

(١) الاصل : « عرصتين عظيمتين »

(٢) كذا في الاصل ، ولعل المقصود « عبوبه » أي زيارته

وفي الربض الشرقي دواليب تنقل الماء إلى المصانع [1] والحمامات .

وفي الربض البحري مساجد ، وكنائس ، ومفارش لتبييض الأمتعة ، وحجارة منقوشة لضربها - يعني الثياب - ونقائها ، كثيرة ، وهدف للرماة ، ومصليان ، أحدهما لجنائز الموتى والآخر لصلاة العيدين

وبها من المراكب الموسومة لصيد السمك في البحيرة المختلفة الأسماء ، مثل : الجرافات والانكبارات والعينات والسد والطراحين والجراجن والباريات ومراكب الترعة والفلاحين والطباخين ومراكب القود والدق ومراكب المضارب ومراكب القرندس ومراكب الابانين ومراكب الدور وثلاثمائة مركب واثنان وسبعون [2] مركباً وأكثر ما يحمل المركب منها ستون رجلا ، وأقله ثلاثة رجال وقد تصيد هذه المراكب فى بعض الأوقات ما يباع بمائة دينار وأكثر

أسماء الأسماك بها :

البوري ، البلبس ، الليت ، البرو ، الاراث ، النسا ، الشكين ، الطوبار ، القلادن ، البلل ، البلطي ، الإبليل ، القشار ، الزلنج ، الاكلت ، القونج ، القجاج ، الدونيس النُّقط ، القرقراج ، اللاج ، الحيار ، التون ، الأحناش ، الانكليس ، المقيثة ، الخف ، اللات ، الحبلا ، الماص ، المشط ، القنا ، حوب الحجر ، السنور ، الراى ، الابرميس ، اللبيس ، سيف الماء ، حدأة الماء ، الشطون ، اللجا ، القرش ، الحسة ، كلب الماء ، السرطان التمساح ، السرنوب ، الصبح ، أم الأسنان ، الدلفين ، العميان ، النسانس ، الرعاد ، البلستين ، الاقونس ، القنديل ، المجرة ، الليف ، الحلبوه ، القهاريس ، الآبنوس ، القرندس ، الدبيليس

وظهر بتنيس في أيام ابن أبي الريش حوت طوله ثمان وعشرون ذراعا ونصف ، بلا قشر ولا صدف ، لونه أسود ، وبطنه أبيض ، طول رأسه ستة أذرع ونصف ، وعرض

(١) جمع مصنعة وهي الخزان أو الصهريج يتخذ لخزن المياه

(٢) في الأصل : واثنين وسبعين

طرف ذنبه خمسة أذرع ، وحمل إلى الحضرة ، وكان المملح له يدخل فى فيه قائما غير منحن .

والذي يجب عن مصايد هذه السموك فى كل سنة خمسون ألف دينار

وفي هذه البحيرة أطيار تأتيها في أوقات مختلفة حتى أن منها ما قد شوهد بالمشرق ، ومنها ما قد شوهد بالمغرب ، وفى بلاد الروم وغير ذلك والدليل على ذلك أنها توجد عند صيدها هزلا ثم تسمن إذا أقامت في هذه البحيرة

أسماء الطيور بها :

الجراد ، الصرد ، الحسيني ، الصدا ، اللسنة ، أبو الحنا ، برقع أم على ، برقع أم حبيب، القمري، درندر مالي ، الراهب ، الشماس ، الخضير ، الصقر ، الهدهد ، وارية الليل، وارية النهار ، البلسنير ، الضريس،الأطروش الشامي ، البصبص، الأخضر ، أم السمان ، أم المرتحة ، صدر النحاس ، أبو سار ، أبو كلب ، ديك الكروم ، الفرافير ، القطاس ، الأوز ، البط ، البعصص ، الأزرق ، رقشة حمراء ، رقشة زرقاء ، الزرزور ، الخفاش ، الزاغ ، الغراب ، الأبقع ، كسر اللوز ، كسر الجوز ، الدبس ، الغابة ، الصقر ، الفحمى ، الحدأة ، الحملة ، السلسلة ، البوم ، الواق ، الهام ، الباشق ، الشاهين، السمان ، المرعة ، السلوى، الملوح ، البرير ، الرخمة ، الليش ، البرنسى ، الزجاجي ، أبو فيروز ، القرط ، البون ، الشراشير ، اللفات ، البشروش ، البط البري ، البلجون ، أبو قلمون ، الكروان البحري ، الكروان الجرفي ، القرلا ، الحروطة ، الحصفة ، الحمراء ، البوشة ، اورث ، المطون، السهيكة البيضاء ، فارية ، جوحه ، بليقا ، اربوحية ، بطميس ، تيلاوه ، سكسة ، المجنونة ، الرفادة، السقس، قرد مصر ، الوطواط ، البجع ، الكركي ، العريض ، الخطاف ، الخرطوم

ومن العصافير التي عير أهلها وتحمل عنهم ما يصيد بقضبان الدبق وعدة المراكب التي تصاد بها الطيور وتعيش من كدبها مائة وثلاثة عشر مركبا. وعدة ما يرد من القوارب والكائم والعشاريات الصادرة من تواصل الشام إليها في كل سنة خمسمائة قارب أكثرها ترد في الصليبية والربيعية

ويرد [1] من اقليم مصر والصعيد والاسكندرية وأقصى الريف ما لا يضبط عـدده لـكثرته ، ترد بأنواع الخيرات من الفواكه وغيرها

وبتنيس مصنعتان عظيمتان [2] تنسبان إلى عمر بن حفص ، مكشوفتا [3] السقوف ، والغربي منها أحد وعشرون بيتا ، والشرقي ثمانية عشر بيتا ومصنع مسقف وسطالمدينة بناه عبدالعزيز الجروي ينقل إليه الماء على دولاب يشتمل عليه ستون قادوسا مدة شهرين كاملين بلياليهما ، يسع كل قادوس في تفريغه في يوم وليلة ألف جرة ، ملء كل جرة أقساط من ماء ، فيكون هذا المصنع ثلاثة آلاف ألف ألف جرة ، وستمائة جرة

ولـكاتب هذا[4] مصنع آخر دون هذا

ولابن طولون ثلاثة مصانع ، أحدها بالقرب من السوق والآخر في زيادة الجامع

والذي يحتاج اليه أهل تنيس من القوت في كل سنة من الحنطـة والشعير والقطاني مائتا ألف أردب ووجدنا البيدار الفـارسي يطحن في كل يوم وليـلة ستة أرادب وكل أردب ستة وتسعون قدحا وإذا ضربت هـذه الأقداح في جميع ما يطحن من الأرادب والويبات ، وأعطى لـكل إنسان قدح واحد [5] لقوت يومه كانشحنة البلد خمسين ألفا ، وقد يزيد على ذلك زيادة تقل وتـكثر مع اختلاف السنين لأن الحاكة يصلحون من الخبز الجريش المجفف في الشمس مايدخرونه للشتاء وقصر النهار فيستغنون عن طحنه

ولا يوجد في خبزها ولا برهـا ولا في أرضها ولا في بنائهـا شيء من الحيوان المهلك والدبيب المؤذي

وطالع تأسيس هذه المدينة برج الحوت وصاحبـه المشتري السعد الأعظم ، وصاحب الشرق الزهرة ، ولذلك كثر طرب نفوس أهلها وفرحهم ، ورغبهم فى مداومات اللذات ،

(١) الأصل : وما يرد
(٢) الاصل : « مصبفتين عظيمتين »
(٣) الأصل : مكشوفي
(٤) هذه إشارة لها أهميتها لأنها تؤكد أن المؤلف من أبناء مدينة تنيس
(٥) الاصل : قدحا واحدا

واستماع الأغاني ومواصلة المسرات ، (ورقة ٧٤) والرغبـة في الراحة، واطراح ما يوجب التعب والمشقة ، والحب للنقش والصورة والرقم والتلوين بالأصباغ ، وعلى قلة الضجر في السفر ، وترك المخالفة لمن يصاحبون ، وكثرة المبالغة لمن يألفون ، وحسن المؤازرة لمن يستخدمهم ، ومحبتهم للغرباء والمسافرين ، والمواظبة على مسرتهم وسرورهم ومنفعهم ، وتركهم للحسد لمن يحبونه والعتب على زلته ، ويمدحونه ويفضلونه ، ويلومون أنفسهم في التقصير عن اخائه وما يستحقه والقيام بذلك

وطول البحيرة أربعون ميلا بما تدور ، مجاريها كلهـا قريبة إلا مجرى يُسْتُماَنة فإنه غريق سحيق نحو الثلاثين باعا وأكثر عمق البحيرة كلها قامة لا تجاوزها إلا هذا الموضع.

وبنت هذه المدينة تِنِّيس بنت صاين تدارس أحد ملوك القبط وكانت البحيرة آجنة وخليج يخترقها من ماء النيل من ضياع عامرة وزروع متوافرة إلى أن غلب عليها البحر الملح وقد تزايد وهاج فهجم من فم الأشتوم على أراضيها وعمائرها فغرقت ؛ فما كان من أرضها مستغلا هلك وعلاه البحر ، وما كان على كوم مثل تنيس وتونة وغيرهما مما هو باق لم يعله الماء وبقى على حالته

وكان ذلك الغرق قبل الإسلام بمائة سنة وقد ذكر المسعودي في كتابه « مروج الذهب » بنفذ البحار الى القفار ، وقد شاهدنا في عصرنا من ذلك ما دَلَّ على صحة قوله ، وما استبحر فى طريق الجفار من مواضع كانت قفرا فصارت بحراً ، وذلك تقدير العزيز العليم

وزعم أهل الأثر أن بحيرة تنيس التي قال الله تعالى فيها : « فأصبَحَ يُقلِّب كفَّيه على ما أنفق فيها وهي خاوِيةٌ على عُروشِها » الآية وذلك أنهـا كانت بساتين ومتنزهـات مقسومة بين اثنين أخوين مؤمنٍ وكافر ، فأنفق المؤمنُ من مـاله في البرِّ والصدقات ، وبقى الكافر ملياً غنياً فخاطبه المؤمنُ يوماً من الأيام ، فاستطال عليه وسطا ، وقال : « أنا أكْثرُ مِنكَ مالاً وأعَزُّ نفَراً » وكان مصب النيل إلى البحر بين ضياعها فارتجَّ البحرُ في الليل رَجَّةً دخلت أمواجه من الأشتوم فغرق كل مستغلها وأرضها ؛ وما كان منها عاليا على ظهر كوم أو رهم من الأرض بقى ، وذلك قبل الإسلام بثلاثمائة وخمسين عاماً

جمال الدين الشيال